غريب القرآن وغريب الحديث: دراسة في المفهوم والتأويل

د. عبد الرَّحمن حسين عبيد
أستاذ مشارك بكليَّة دراسات القرآن والسُّنَّة. جامعةُ العُلُوم الإسلاميَّة الماليزيَّة
Email: drabrahman@usim.edu.my

مقدمة البحث

يُعد القرآن الكريم المعجزة الخالدة والتحدي الأزلي القائم إلى يوم الدين، وقد نزل الروح الأمين به على صدر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والقرآن الكريم كتاب هداية بالدرجة الأولى، وهو المصدر الرئيس للتشريع الإسلامي والدستور الذي يهدي المسلمين ويحتكمون إليه في أمورهم الدنيوية. ولأن القرآن الكريم نزل باللغة العربية الفصيحة ومن عند خالق اللغات واللهجات، فقد تضمنت بعض آياته كلمات غير مألوفة أو غير واضحة —كالكلمات المقطعة في أوائل السور، والكلمات المعربة، والغريب الذي يحمل دلالات متعددة – لبعض المسلمين ممن ليست لهم دراية كافية باللغة العربية القديمة أو الفصيحة. وتُعرف هذه الكلمات بـ"غريب القرآن"، وهو مصطلح يُشير إلى الكلمات التي يختلف معناها في الاستخدام القرآني عن المعاني المتداولة والدائرة على الألسن وفي مجالس العلم.

وغريب القرآن هو "الكلمات القرآنية التي يقلّ استعمالها أو يندر، أو التي يكون معناها مخالفًا للمعنى المتبادر إلى الذهن في سياق النصوص غير القرآنية". ويتطلب فهم هذه الكلمات معرفة عميقة باللغة العربية، لاسيما بلهجاتها وأساليبها في فترة نزول القرآن ومعرفة الشعر الجاهلي السابق للإسلام وأمثال العرب. أما غريب الحديث فهو "الكلمات أو الألفاظ الواردة في الحديث النبوي التي يصعب على العامة فهم معناها، إما لأنها من اللهجات العربية القديمة أو لأنها كلمات قلّ استعمالها". وهذه الكلمات ترد في الأحاديث الصحيحة وتحتاج إلى شرح للوصول إلى فهم معناها الحقيقي، حتى يتمكن الباحثون من الاستفادة من السنة النبوية بشكل كامل.

منهج البحث

المنهج المتبع في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي، بالاعتماد على البيانات المكتبية الموثقة من كتب غريب القرآن وغريب الحديث، وتحليلها في ضوء السياقات التاريخية والفقهية لفصل الإفرادي منها من التركيبي، وعقد المقارنات المناسبة بين المناهج القديمة والمعاصرة التي عنيت بموضوع الغريب ودلالاته، والكشف عن أوجه التشابه والاختلاف بينهما وتأثير ذلك في موضوع التأويل وتغاير المعنى.

مشكلة البحث

يختلط علم الغريب بالمترادف أحياناً وبالمعرب أحياناً أخرى حتى أن المستشرقين عدوا ذلك من أسباب الغموض الذي يكتنف بعض الآيات ويفضي إلى معاني لا نهائية للنص قد يتعارض بعضها مع الآخر، وقلما يتجاوز الدلالات اللفظية المبنية على النظر في المفردة القرآنية أو الحديثية، في حين أن السياقات التاريخية والفقهية تؤدي دوراً كبيراً في إفراز معانٍ جديدة تتجاوز في دلالاتها المعاني المعجمية الكلاسيكية على الرغم من أهميتها.

أسئلة البحث

لماذا تغيرت المناهج المتعلقة بدراسة غريب القرآن والحديث بين الماضي والحاضر؟

كيف تغير السياقات العامة والتاريخية الدلالات المعجمية لمفردة الغريب القرآني أو الحديثي؟

المبحث الأول: غريب القرآن

فهم غريب القرآن ضروري لفهم النصوص القرآنية بشكل صحيح ولتفسيرها على الوجه الأمثل. ومن أهم أسباب دراسة غريب القرآن: توضيح الإعجاز البلاغي الذي يظهر إعجاز القرآن الكريم، وتوضيح المعاني الصحيحة التي تظهر عظمة اللغة العربية وحضورها الدائم في حياتنا. ولفهم غريب القرآن، ينبغي اتباع منهجية علمية دقيقة تشمل: الاعتماد على سياق الآية، فكثير من الكلمات الغريبة يمكن فهم معناها من السياقات التاريخية والفقهية للآيات التي وردت فيها. والرجوع إلى الشعر الجاهلي حيث إن القرآن نزل بلغة العرب وفي زمن الجاهلية، لذا فإن الشعر الجاهلي يُعد من المصادر المهمة لفهم معاني الكلمات الغريبة، كما قال عمر رضي الله عنه، الشعر ديوان العرب، والمحادثة المشهورة التي دارت بين نافع ابن الأزرق ابن عباس رضي الله عنه مثال عن الاستشهاد بالشعر على المعنى المراد (أحمد الشرقاوي إقبال. 1993) وإن كانت المحادثة الأصلية قد ضعفت بالزيادات الموضوعة عليها على رأي كثير من الباحثين.

والاستفادة من كتب التفسير واللغة بالعودة إلى كتب التفسير التي تتناول غريب القرآن وإلى المعاجم اللغوية التي توضح معاني الكلمات. وهناك العديد من الكتب التي اهتمت بتفسير غريب القرآن، ومن أبرزها كتاب "غريب القرآن" لابن قتيبة الذي يُعد من أوائل الكتب التي اهتمت بشرح الكلمات الغريبة في القرآن الكريم، وكتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة معمر بن المثنى الذي هو من الكتب المهمة التي تناولت تفسير القرآن وتوضيح معاني الكلمات الغريبة، وكتاب "معاني القرآن" للفراء الذي يتناول شرح المعاني اللغوية للكلمات التي قد تكون غريبة أو صعبة الفهم. قال الزجاجي: الغريب هو ما ندر استماعه من اللغة، ولم يدر في أفواه العامة، مثلما دار في أفواه الخاصة (الزجاجي. 1979). وقال الزركشي غريب القرآن هو معرفة مدلول الألفاظ (الزركشي. 1956). وقال مصطفى صادق الرافعي: الغريب هو استعمال اللفظ في غير المعنى الذي وضع له بقرينة دالة (الرافعي. 2005). وللعموم والخصوص أثر في علم غريب القرآن فقد يقع عام

يراد به الخصوص، أو يخصص بما يقع به البيان من الكتاب والسنة فلا يعلم المراد به إلا بذلك البيان، أو ربما يقع مبهماً يأتي بيانه من الكتاب والسنة (مكي بن أبي طالب. 1981).

وهذه أمثلة من غريب القرآن: غسلين: وردت في قوله تعالى: "فليس له اليوم ها هنا حميم ولا طعام إلا من غسلين" (الحاقة: 35–36)، والغسلين هو صديد أهل النار وما يخرج من جروحهم. الأبّ: وردت في قوله تعالى: "وفاكهةً وأباً" (عبس: 31)، والأبّ هو الكلأ والعشب الذي تأكله البهائم. الكوثر: وردت في قوله تعالى: "إنا أعطيناك الكوثر" (الكوثر: 1)، والكوثر هو نهر في الجنة أو الخير الكثير. كلالة في قوله تعالى: "وإن كان رجل يُورث كلالةً" (النساء: 12)، والكلالة: هو الشخص الذي لا يترك أبًا أو ولدًا يرثه. الصَّرصر في قوله تعالى: "في أيامٍ نَحساتٍ سبع ليالٍ وثمانية أيام حُسوماً فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً" (الحاقة: 7) والصَّرْصَر: الرياح العاتية الشديدة الباردة. استبرق في قوله تعالى: "ويلبسون ثياباً خضراً من سندسٍ وإستبرق" (الكهف: 31)، والاستبرق: هو الحرير الغليظ. سِجِّيل في قوله تعالى: "ترميهم بحجارةٍ من سجيل" (الفيل: 4) والسجيل: الطين المتحجر أو المشوي.

المبحث الثاني: غريب الحديث

غريب الحديث هو مصطلح يُطلق على الألفاظ الواردة في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم التي يكون معناها غير واضح أو غير شائع الاستخدام بين الناس في زمن معين. وهو علم يهتم باستقصاء وبيان ما يخفى معناه من ألفاظ الحديث النبوي، من خلال الكشف عن معانيها، وشرح غوامضها، وتوضيح المراد منها (صبحي الصالح. 2016). ولأن الحديث النبوي يمثل المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، كان لا بد من فهم ألفاظه بشكل دقيق وصحيح. وهذا ما دفع العلماء إلى الاهتمام بشرح الكلمات الغريبة في الأحاديث النبوية من أجل تسهيل فهمها وتبيين المعاني الحقيقية المرادة منها. والحديث النبوي يحتوي على الكثير من التعاليم والأحكام التي يحتاج المسلم إلى فهمها ليطبقها في حياته اليومية. ودراسة غريب الحديث لها أهمية كبيرة، ومن أبرزها فهم السنة النبوية بشكل صحيح فالكلمات الغريبة قد تحمل معاني تختلف عن المفهوم الشائع في عصرنا، لذلك يحتاج الإنسان إلى فهم دقيق للألفاظ لتطبيق السنة بطريقة صحيحة. ومنها توضيح الأحكام الشرعية ففهم معاني الكلمات الغريبة يساعد الفقهاء والمفتين في استنباط الأحكام الشرعية من السنة. ومنها الحفاظ على التراث الإسلامي فمن خلال دراسة غريب الحديث يتم توثيق معاني الكلمات العربية القديمة والحفاظ عليها من الضياع.

وتكمن أهمية هذا العلم في تحقيق الفهم الصحيح لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتوقي عن وقوع الخطأ في فهم معناه، أو حصول الخلل في إدراك مراده. ولذلك فإن الإلمام بهذا العلم ضروري والجهل به قبيح في حق أهل العلم عامة، وأهل الحديث خاصة (ابن الصلاح الشهرزوري.2009). واتبع العلماء في دراستهم لغريب الحديث عدة مناهج

للوصول إلى المعاني الصحيحة للألفاظ الغريبة، ومن هذه المناهج الرجوع إلى اللغة العربية الفصحى، فالعلماء يعتمدون على المعاجم اللغوية لفهم معاني الكلمات التي قد تكون غير واضحة. ومنها الاعتماد على السياق ففي كثير من الأحيان، يمكن فهم معاني الكلمات الغريبة من خلال النظر إلى سياق الحديث الذي وردت فيه. ومنها الاستشهاد بالشعر العربي الجاهلي فكما هو الحال في غريب القرآن، فإن الاستعانة بالشعر الجاهلي يساعد على فهم معاني الكلمات الغريبة لأن الشعر هو مصدر لغوي أصيل. ومنها التفسير بالمأثور إذ يعتمد العلماء على تفسير الصحابة والتابعين لكلمات الأحاديث الغريبة، لأنهم كانوا أقرب زمنًا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وفهمهم للغة كان أكثر دقة وأقرب إلى الاستعمال النبوي لها.

وأشهر كتب غريب الحديث كتاب "غريب الحديث" لأبي عبيد القاسم بن سلام الذي يُعد من أوائل الكتب التي اهتمت بتفسير الألفاظ الغريبة في الأحاديث النبوية. وكتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الأثير الجزري فهو من الكتب الموسوعية التي تناولت غريب الحديث بشكل شامل. وكتاب "الفائق في غريب الحديث" للزمخشري الذي يعد من المصادر المهمة في شرح غريب الحديث وتفسير معاني الكلمات. ومن الأمثلة على غريب الحديث: الذرور: وردت في الحديث: "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الذرور"، والذرور هو ما يُذر على الجرح من مسحوق دوائي. العُقبة: في الحديث: "من قتل دون ماله فهو شهيد، والعُقبة له"، والعُقبة هي الزيادة أو النصيب. الذَّرْع: ورد في الحديث: "من الذَّرْع"، والذَّرْع هو القياس أو التقدير بالأذرع. الجَفْنة في الحديث: "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي، والجفنة من الحوض مثل الجبال"، والجفنة: هي القصعة الكبيرة التي يُجمع فيها الطعام. القَسْطَاس في الحديث: "إنه رُفع إلى السماء فرأيتُ القسطاس يميل"، والقسطاس: الميزان العادل. المِذْق في الحديث: "ويلٌ للمُذقِّين" والمِذْق: هو من يُظهر المودة ويُبطن البغضاء والنفاق. البَزَاخَة في الحديث: "ما بَزَاخةُ العلم؟" البَزَاخة: تعني كثرة وزينة العلم. الدُّلْجَة في الحديث: "عليكم بالدُّلْجة، فإن الأرض تُطوى بالليل"، والدُّلجة: هي السير في الليل. الرَّوْثَة في الحديث: "لعن اللهُ السارق يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الرَّوثة فتقطع يده"، والرَّوثة: هي الحبل الذي تربط به الناقة.

المبحث الثالث: التحليل والنقد

الفرق بين غريب القرآن وغريب الحديث يكمن في طبيعة النصوص التي يتناولانها، بالإضافة إلى بعض الاختلافات في المناهج التي يعتمدها العلماء في شرح الألفاظ الغريبة. وفيما يأتي توضيح أبرز الفروقات:

1. المصدر:

غريب القرآن: يتناول الألفاظ الغريبة في القرآن الكريم، وهو النص الإلهي المقدس الذي يُعد معجزة لغوية نزلت بلغة العرب الفصيحة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

غريب الحديث: يتناول الألفاظ الغريبة في الأحاديث النبوية، وهي الأقوال والأفعال والتقريرات المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم، وتأتي في سياقات حياتية وأحداث يومية تتعلق بالتشريع والسلوك، وربما يكون هذا الحديث وحياً إلى الرسول

صلى الله عليه وسلم أداه بلفظ من عنده وهو الذي أوتي جوامع الكلم، وربما يكون من مطلق كلامه البشري وحينها لا يصلح لأن يكون مصدراً من مصادر التشريع ولكن يبقى مصدراً من مصادر اللغة!

2. اللغة المستخدمة:

غريب القرآن: القرآن نزل بلغة عربية فصيحة في مستوى عالٍ جدًا من البلاغة والإيجاز، والكلمات الغريبة فيه غالبًا ما تكون من اللهجات أو المعاني القديمة التي قد لا تكون مألوفة للجميع في كل زمن، ولغة القرآن معجزة في كل آية من آياته فلا يصلح تبديل مفردة منه ولا حتى حرف واحد منه!

غريب الحديث: الأحاديث النبوية جاءت بلغة الحياة اليومية، وهي أقرب إلى لغة التخاطب البشري العادي، لكنها في بعض الأحيان تحتوي على كلمات أو تعبيرات غير شائعة أو غريبة نظراً للظروف الزمانية والمكانية، وهي في كل الأحوال نبع ثري يغذي اللغة الفصحى ويوسع من مخزونها الكبير.

3. الأسلوب البلاغي:

غريب القرآن: يعتمد على أسلوب بلاغي فائق ويتطلب إدراكًا عميقًا باللغة العربية في أوج فصاحتها، وتفسير غريب القرآن يحتاج إلى التركيز على الإعجاز اللغوي والبياني للقرآن، وقد اجتهد علماء اللغة والبيان في كشف الأسرار البلاغية للقرآن سواء في كتب التفسير ككتاب الكشاف للزمخشري أو كتاب البيان والتبيين للجاحظ، أو كتاب أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني.

غريب الحديث: يتميز بالأسلوب الطبيعي في الحديث اليومي الذي استخدمه النبي صلى الله عليه وسلم في مخاطبة أصحابه، ويعتمد أكثر على فهم السياق الاجتماعي والعملي للكلمات، والمصادر في غريب الحديث كثيرة وعلى رأسها تعليقات ابن بطال وكتاب غريب الحديث لابن قتيبة.

4. التناول العلمي:

غريب القرآن: يتناول العلماء الكلمات الغريبة في القرآن ضمن التفاسير والكتب المتخصصة في علوم القرآن، وذلك لفهم المقاصد الشرعية واللغوية للنصوص، وخير التفاسير التي تتبعت غريب القرآن تفسير الإمام الطبري، وتفسير الكشاف للزمخشري، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي وغيرها كثير.

غريب الحديث: يعتمد شرح غريب الحديث على فهم السياقات المختلفة التي جاءت فيها الأحاديث، بالإضافة إلى الرجوع إلى اللغة والتاريخ لفهم المصطلحات الغريبة في ضوء الأحداث التي رافقت حياة النبي وصحابته ويمكن تتبعها في كتب غريب الحديث، والشروحات التي وضعت على الصحاح كشرح ابن حجر العسقلاني على صحيح البخاري، وشرح الإمام النووي على صحيح مسلم.

5. أمثلة الكتب:

غريب القرآن: مثل كتاب "غريب القرآن" لابن قتيبة، و"مجاز القرآن" لأبي عبيدة.

غريب الحديث: مثل كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الأثير، و"الفائق في غريب الحديث" للزمخشري. باختصار، غريب القرآن يركز على الألفاظ القرآنية التي تكون غامضة أو غير معروفة للعامة، بينما غريب الحديث يتناول الألفاظ الواردة في الأحاديث النبوية التي تحتاج إلى شرح. كلاهما يعكف على شرح الألفاظ غير المألوفة، لكن سياق النص ونوع اللغة المستخدمة يختلفان.

ويبقى غريب القرآن من المواضيع المهمة التي تحتاج إلى دراسة وبحث مستمرين من أجل الفهم الصحيح لآيات القرآن الكريم. وتعلم هذا العلم يعزز من قدرة الباحثين على التعمق في معاني القرآن الكريم واستخراج الفوائد والأحكام الشرعية والنظريات العلمية المعاصرة. كما أنه يسهم في حفظ التراث اللغوي العربي ويعيد إحياء معاني كلمات كانت سائدة في الزمن الماضي. وتظل دراسة غريب الحديث كذلك من الموضوعات الدقيقة التي يتطلبها الفهم الصحيح للأحاديث النبوية. فالحديث النبوي يحتوي على ثروة عظيمة من الأحكام الشرعية والأخلاقية والمواعظ والرقائق التي تحتاج إلى فهم دقيق لكل لفظ ورد فيها، ودراسة غريب الحديث تسهم في توضيح هذه الألفاظ وإزالة اللبس عن معانيها، مما يساعد المسلمين على تطبيق السنة النبوية بشكل سليم.

ومن الأمثلة التي يؤدي فيها السياق التاريخي دوراً في ترجيح معنى على آخر ما ذكره الإمام الطبري حول معنى مفردة (قصر) في قوله تعالى: (إنها ترمي بشرر كالقصر)، إذ ذهب الكثير من القدامى والمعاصرين إلى أن المعنى هو شرر عظيم وكبير لا يخطر في البال والخيال! إلا أن الإمام الطبري ارتأى أن المعنى الأصح هو استعمال العرب للمفردة في حياتهم الاجتماعية وظروف التدفئة في فصل الشتاء، حيث كانت أكبر قطعة من الخشب ترمى في النار للتدفئة تسمى القصر (الطبري. 2010)، فكيف إذا أصبحت أكبر قطعة الشرارة التي تنبعث من النار؟! فالصورة المتولدة في ذهن العربي ذلك الوقت تصور له عظم هذه الشرارة وضخامتها لصلتها بحياته اليومية، وقد لا تنبعث هذه الصورة القوية في أذهاننا اليوم لفساد تصوراتنا حول معاني القصر وغياب هذه المفردة من طقوس التدفئة في الشتاء، فلا يكاد هذا المعنى (الاجتماعي) يهز خيالنا ويبعث في النفوس قشعريرة الخوف!

خاتمة البحث

بعد عرض التعريفات المنتخبة لغريب القرآن وغريب الحديث، والكشف عن أهمية هذا العلم مع ضرب الأمثلة، وبيان الفروقات بينهما، توصل البحث إلى جملة من النتائج، منها:

أولاً: للغريب أهمية خاصة في اكتشاف عظمة اللغة العربية، وقد اختلفت مناهج المعاصرين عن القدامى بسبب التطور الكبير في علم اللغات والمناهج الفيلولوجية المعاصرة التي أسهمت في استنباط المعاني الفلسفية والاجتماعية والتاريخية للمفردة القرآنية فضلاً عن المعاني التشريعية والبلاغية.

ثانياً: ظهر من خلال نموذج (القصر) دور المناخ الاجتماعي في ترجيح بعض المعاني التي كانت لها تأثيرات نفسية عميقة في الماضي واختفت تلك التأثيرات في عصرنا للفصل الحادث بين المفردة والطقوس الاجتماعية!

قائمة المصادر والمراجع

إقبال، أحمد الشرقاوي، (1993). معجم المعاجم. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

الرافعي، مصطفى صادق، (2005). إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. بيروت: دار الكتاب العربي.

الزجاجي، أبو القاسم، (1979). الإيضاح في علل النحو. تحقيق مازن مبارك. القاهرة: دار النفائس.

الزركشي، محمد بن عبد الله بن بهادر، (1956). البرهان في علوم القرآن. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: إحياء الكتب العربية.

الشهرزوري، ابن الصلاح عثمان بن عبد الرحمن، (2009). مقدمة ابن الصلاح (معرفة أنواع علوم الحديث). بيروت: دار الكتب العلمية.

صبحي الصالح، (2016). علوم الحديث ومصطلحه. دمشق: مطبعة جامعة دمشق.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (2010). جامع البيان عن تأويل آي القرآن. بيروت: مؤسسة الرسالة.

مكي بن أبي طالب، (1981). العمدة في غريب القرآن. تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي. بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1.